البابا شنوده الثالث

كلمات السيد المسيح على الصليب

البابا شنوده الثالث

كلمات السيّد المسيح على الصليب

لوندي

THE 7 WORDS OF OUR LORD ON THE CROSS

BY H.H. POPE SHENOUDA III

17th Print
Mar. 2014
Cairo

الطبعة السابعة عشر
مارس ٢٠١٤
القاهرة

قداسة البابا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

مثلث الطوبى قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الكسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

الكتاب : كلمات السيد المسيح على الصليب
المؤلف : قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث
الناشر : الكلية الإكليريكية بالقاهرة.
المطبعة : الأنبا رويس الأوفست بالكاتدرائية – العباسية.
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٠/٧١٦٧

فهرس الكتاب

صفحة

كلمات المسيح على الصليب ٦

١ – يا أبتاه أغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون؟ ٩

٢ – اليوم تكون معى فى الفردوس.. ..... ١٥

٣ – هوذا ابنك .. هوذا أمك ٢٣

٤ – إلهى إلهى لماذا تركتنى؟ ٢٧

٥ – أنا عطشان ٣١

٦ – قد أكمل ٣٣

٧ – يا أبتاه ، فى يديك استودع روحى ٣٥

فاعلية هذه الكلمات فى حياتنا ٣٧

كلمات المسيح على الصليب

إنها سبع كلمات، لفظ بها الرب على الصليب، فى آلامه.. وكانت كلها حياة.. لنا.

لـــم يتكلم أثناء المحاكمات، ولا أثناء التعذيب والإستهزاء إلا نادراً. كان يغلب عليه الصـــمت.. لقـــد تنازل عن حقه الخاص، وكرامته الخاصة "فالمحبة لا تطلب ما لنفسها" (١كو١٣: ٥).

أما على الصليب، فتكلم، حين وجب الكلام. تكلم من أجلنا، لنفعنا وخلاصنا. وكان لكل كلمـــة هدف ومعنى. ولكل كلمة تأثير.. وسندخل فى أعماق كل هذا بعد حين.. على أننا نلاحظ على كلماته بوجه عام عدة ملاحظات منها:

نلاحظ فى كلمات المسيح على الصليب عنصر العطاء..

عجيب أنه – وهو على الصليب – فى مظهر الضعف والانهزام كان يعطى.. أعطى لصـــالبيه المغفـــرة، وأعطى للص اليمين الفردوس، وأعطى للعذراء إبناً روحياً ورعاية واهتماماً، وأعطى ليوحنا الحبيب بركة العذراء فى بيته.. وأعطى للآب ثمن العدل الإلهى الـــذى يتطلـــبه، وأعطـــى للبشرية كفارة وفداء.. وأعطانا أيضاً اطمئناناً على تمام عمل الخلاص.. أعطى لكل أحد. وهو الذى لم يُعطه أحد شيئاً.. قدم للبشر كل هذا، فى الوقت الذى لم يقدموا له فيه سوى مرارة وخل...

وكلمات المسيح السبع، كان أولها وآخرها موجهاً إلى الآب.

كانت أول كلمة موجهة إلى الآب فى قوله "يا أبتاه، أغفر لهم". وآخر كلمة موجهة إلى الله الآب فـــى قولـــــه "يا أبتاه فى يديك أستودع روحى". وبين الأول والآخر كانت هناك كلمـــتان أيضاً موجهتين إلى الآب: إحداهما "إلهى إلهى لماذا تركتنى". والثانية "قد أكمل". ومـــع أنها قد تكون إعلاناً عاماً، إلا أنها تحمل خطاباً إلى الآب أى "العمل الذى أعطيتنى لأعمله قد أكملته"...

غالبـــية كلمات المسيح إذن أو نصفها، كانت موجهة إلى الآب. وكانت تحمل طمأنينة للبشر.

ونلاحظ أنه فى كلامه مع الآب استعمل التعبيرين "يا أبتاه" و"إلهى": فى عبارة "يا أبتاه" رد على الذين كانوا يتحدونه قائلين "إن كنت ابن الله.. إنزل من على الصليب". فأثبت أنه ابن الله. ولكنه لم ينزل من على الصليب، وإنما رفع الصليب إلى علو السماء.

فـــى عـــبارة يا أبتاه أثبت لاهوته، وفى عبارة "إلهى" أثبت ناسوته. ومن كليهما معاً أعلن أنه الإله المتأنس، الله الذى ظهر فى الجسد (١تى٣: ١٦). فى عبارة "يا أبتاه" شجب الهـــرطقة الأريوســـية التى أنكرت لاهوته فى القرن الرابع. وفى عبارة "يا إلهى" شجب هـــرطقة أوطيخا الذى أنكر ناسوت المسيح فى القرن الخامس.. فى الأولى تكلم كابن الله، وفى الثانية تكلم كابن الإنسان، كنائب عن البشر...

ولم يتكلم على الصليب مع الآب فقط، وإنما مع البشر أيضاً.. مع القديسين ممثلين فى السيدة العذراء وفى يوحنا الرسول.. ومع الأشرار التائبين ممثلين فى اللص اليمين..

وكانت كلماته كلمات بركة ونعمة.. لقد كانت ساعة للخلاص. وكانت تليق بها البركة. لذلـــك تكلم بكلام المغفرة والخلاص والفردوس، وبكلام الهبة والنعمة.. وعلى الصليب لم يلعن أحداً، ولم يعاقب أحداً، على الرغم من كل الذى وقع عليه.. إنه لم يأتِ ليهلك العالم، بل ليخلص العالم.

ونلاحـــظ فى كلماته على الصليب ترتيباً خاصاً لا تخفى حكمته.. غيره أولاً ثم نفسه. ونفسه من أجل غيره.

بـــدأ أولاً يطلـــب المغفـــرة للـــناس، لأنه على الصليب بدأت فاعلية دمه المقدس فى الغفران.. وإذ فتح باب المغفرة، جاءت الكلمة الثانية الخاصة بفتح الفردوس، لأنه إذ يدفع الدم ثمناً للمغفرة يمكن فتح الفردوس..

نلاحـــظ أيضـــاً أن الســـيد المســـيح ذكر أعداءه أولاً ثم أحباءه. كلامه الأول خاص بصالبيه، ثم باللص، ثم بالعذراء ويوحنا..

وفـــى حديـــثه مع الله الآب، كلمه أولاً كأب ثم كإله.. أولاً كالابن المحبوب الكائن فى حضن الآب منذ الأزل (يو١: ١٨)، ثم كإبن الإنسان المولود فى ملء الزمان..

كلماتـــه الثلاثة الأولى كانت خاصة بالمغفرة والرعاية. وكلماته الأربع الأخيرة، كانت

إعلانات لعمل الفداء وإتمامه:

فعـــبارة "إلهـــى لمـــاذا تركتنى" تعنى أن الآب قد تركه ليدفع ثمن الفداء وتعنى آلامه النفســـية من جهة تحمل غضب الله على خطايا البشر. وعبارة "أنا عطشان" تعنى إعلاناً لـــلآلام الجسدية من أجل البشر. وكلا العبارتين تعنيان أنه يدفع الثمن. وعبارة "قد أكمل" فيها طمأنة للإنسان أن الثمن قد دُفع. وعبارة "فى يديك أستودع روحى" تعنى الموت ثمن الخطـــية، وبـــه يكون قد تم الخلاص.. إذن فهذه العبارات الأربع الأخيرة تحمل طمأنينة للبشر من جهة فدائهم...

ونلاحظ أن الكلمتين الأخيرتين فيهما هتاف الفرح والانتصار..

كمـــا أعلـــن الرب ألمه الذى به تم الفداء. أعلن أيضاً فرحه بإتمام الفداء. فعبارة "قد أكمل" تحمل معنى أن كل شئ خاص بالفداء قد تم. لقد فرح الرب بإتمام عمله ولم يسمح لشئ أن يعوقه. ونفس الكلام نقوله عن عبارة في يديك أستودع روحى". بهاتين العبارتين أعلـــن هـــزيمة الشـــيطان. لقـــد انتهت المعركة. واستطاع الرب بالموت أن يبيد سلطان الموت.. وهتف هتاف الفرح والانتصار...

كـــل هـــذا يعطينا فكرة أن المسيح على الصليب، كان يعمل، لأجلنا.. ليس فقط عمل الفداء، وإنما كان على الصليب – كعهده – يصنع خيراً.. **كان معلماً**، وكان يعلن إعلانات هامة لأجل الخلاص...

فـــى كلمـــته الأولى أعطانا تعليماً عملياً عن التسامح والمغفرة، ومحبة الأعداء.. وفى كلمـــته الأخيرة "فى يديك أستودع روحى"، أعطانا تعليماً عن خلود النفس، وانتقال الروح البارة بعد الموت إلى الله.

وفـــى كلمـــته الثالـــثة أعطانا تعليماً عن الرعاية الحقة، وعن التنفيذ الصادق العملى للوصية الخامسة.. بإكرامه لأمه..

ما أكثر التعاليم والتأملات التى نجدها فى هذه الكلمات السبع، التى يرمز عددها إلى الكمال.. فلننتقل الآن إليها.. وندخل إلى أعماقها واحدة فواحدة..

الكلمة الأولى

يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون (لوقا ٢٣: ٣٤)

المسيح إلهنا الحنون – وهو فى عمق الآلام على الصليب – كان منشغلاً بغيره لا بنفسه. لم يذكر آلامه ولا تعبه ولا جراحاته. لم يأبه لآلام السياط على ظهره، ولا بارتكاز المسامير فى يديه وقدميه، ولا بوخز الشوك فى جبينه ورأسه، ولا بجسده المرضض المنهك.. وإنما ترك كل ذلك جانباً، وكان كل ما يشغله هو محبته للبشر وأول ما فكر، فكر فى إنقاذ كارهيه وصالبيه.. وهكذا كانت أول كلمة قالها على الصليب "يا أبتاه إغفر لهم، لأنه لا يدرون ماذا يفعلون" (لو٢٣: ٢٤).

وقد اهتم الرب بأعدائه أولاً، قبل أحبائه وقبل نفسه.. فغفر أولاً لصالبيه ثم غفر للص الذى عيره أولاً وآمن أخيراً. ثم أبدى اهتمامه بأمه. وبعد كل ذلك تكلم عن نفسه..

"يا أبتاه إغفر لهم" قالها وهو فى منتهى الألم الجسمانى.. كان حقاً فى عمق المقاساة من هؤلاء الذين يطلب لهم الغفران!.. ولكن محبته لهم، كانت أكثر من عداوتهم له، عداوتهم التى لا توصف، من عمق بشاعتها..

ومع ذلك لم يطلب لهم الغفران فقط، وإنما أيضاً إلتمس لهم عذراً!

هؤلاء الذين كانوا يجسرون أن يفكروا فى عذر لأنفسهم. والذين صاحوا فى جرأة مخبولة "دمه علينا وعلى أولادنا" (مت٢٧: ١٥). هؤلاء إستطاع المصلوب المجروح منهم أن يوجد لهم عذراً. فقال "لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون".. ما أعجب الرب فى محبته "إنه لم يصب عليهم اللعنات. ولم يطلب النقمة منهم. بل أيضاً لم يصمت ويأخذ منهم موقفاً سلبياً.. وإنما كان حبه إيجابياً من ناحيتهم، فطلب لهم المغفرة، وقدم عنهم عذراً، مدافعاً عنهم أمام الآب السماوى، معلناً أن خطيئتهم هى مجرد خطية جهل.

إننا نحن البشر نقول إن فعلتهم هى مجموعة من الخطايا البشعة.. إنها خطايا حسد وغيرة وكراهية ودس ووقيعة من الرؤساء الدينيين، وخطايا إندفاع ونكران جميل من

الشـــعب الجاحد، وخطايا قسوة واستهزاء وشتائم واعتداء وإهانة من الجند وخدام الكهنة، وخطايا جبن وظلم ولا مبالاة من بيلاطس. وفوق كل ذلك هى خطية قتل، وخطية تعذيب، وخطايـــا كـــذب وتلفيق فى المحاكمة.. أما المصلوب الحنون الطيب فلم يذكر سوى أنها خطية جهل، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون"! ما أعجب طيبة قلبك أيها المحبوب المصلوب. إن أعماق هذه الطيبة هى فوق إدراكنا...

إن السيد المسيح فى غفرانه لصالبيه، قد قدم مثالا عمليا لتنفيذ وصاياه. لقد قال من قبل أحبوا أعداءكم.. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم". وها هوذا يـــنفذ بنفســـه ما سبق أن أوصى به الناس. إن الرب لا يعطى وصايا للآخرين، دون أن يـــنفذها بنفســـه. لقد نفذ هذه الوصية "محبة الأعداء"، ونفذها عملياً، فى عمق وفى مثالية عجيبة.. فغفر لصالبيه ومضطهديه وللمسيئين إليه..

وأنـــت أيها الأخ المبارك، ما هو موقفك من هذه الآية "يا أبتاه إغفر لهم"؟.. يا ليتك عـــندما تسمع هذه العبارة فى يوم الجمعة الكبيرة، وعندما تتذكرها فى أى وقت، تقول فى صدق "وأنا أيضاً يارب، سأفعل مثلك: كل الذين أبغضونى وأغضبونى، كل الذين أتعبونى واضطهدونى، كل الذين ضايقونى وأساءوا إلىّ، إغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون".. وهكذا يا أخى تشترك مع المسيح فى عمله وفى حبه..

ماذا تستفيد أنت إنه كان المسيح قد غفر لأعدائه وأنت لم تغفر؟

ماذا تستفيد إن كان المسيح قد أحب أعداءه بينما أنت لا تحب أعداءك، ولا تسامحهم؟! ماذا تستفيد؟.. إذن فأنت لم تشترك مع المسيح فى عمله، ولم تسلك فى صفاته..

إعلم إذن أن المسيح قد غفر لنا، لكى نغفر نحن أيضاً لغيرنا، ونتمتع ببركة المغفرة. التى تأتى إلينا، والتى تصدر منا..

كلما نتذكر إساءات الناس إلينا، فلنقل نحن أيضاً من أعماق أعماقنا "أغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون". غير أننا عندما نقول هذا، يختلف موقفنا عن موقف السيد المسيح.

إنـــه يقول : يا أبتاه أغفر لهم، لأنى دفعت ثمن خطيئتهم. من أجل هذا لم يبق عليهم دين. أنا قد وفيت العدل الإلهى، وسددت كل ديونهم فأغفر لهم إذن. هوذا أنا أموت عنهم. هـــوذا أنا أموت عن الذين صلبونى، وعن الذين يحبوننى.. وعندما أقول "أغفر لهم" لست أقصد هؤلاء فقط ، وإنما كل الذين يحتمون فى دمى.. كل الخطاه الذين تابوا من آدم إلى

آخر إلى الدهور.. إغفر لهم، لأنى لهذا جئت (يو١٢: ٢٧)..

واحـــد مـــن هـــؤلاء الذين إنطبقت عليهم عبارة "لايدرون ماذا يفعلون"،هو القديس العظيم الأنبا لونجينوس الجندى الذى طعن المسيح بالحربة.. هذا القديس تعيد له الكنيسة المقدســـة فـــى يومين: فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أبيب، وفى اليوم الخامس من شهر هاتور.. إنه طعن المسيح بالحربة، ولم يكن يدرى ماذا يفعل، فغفر الرب لـــه. ولم يكـــتف بهـــذا، بل أقتاده إليه أيضاً، فآمن وبشر بالمسيحية فى بلاد كبادوكية، ونال إكليل الشهادة على يد طيباريوس قيصر، وأظهر الرب كرامته بمعجزات بعد موته..

هـــناك قديس آخر تنطبق عليه عبارة "لا يدرون ماذا يفعلون" كان وحشاً ضارباً فى محاربـــة المســـيحين وفى تعذيبهم وقتلهم. إن قلنا إن أكثر إنسان أضطهد المسيحين هو الإمـــبراطور دقلديانوس فإن هذا كان الساعد الأيمن لدقلديانوس فى عملية التعذيب.. كان جـــباراً مرعـــباً، ولم يوجد فى كل ولاة الإمبراطور الرومانية من هو أشد منه وأعنف.. كـــانوا يرسلون إليه كل من يتعب الولاة فى تعذيبه من المسيحيين، فيعامله بقسوة وبفنون جديدة فى التعذيب لا تعرف للرحمة اسماً ولا معنى .

هـــذا الرجل هو القديس إريانوس والى أنصنا[1] الذى سفك دماء عشرات الآلاف من المســـيحين، بـــل قتلهم فى وحشية، وهو لا يدرى ماذا يفعل.. وظل هكذا لا يدرى حتى جذبـــه المسيح إليه، فآمن به، وإستشهد على اسمه فى اليوم الثامن من شهر برمهات علـــى يد الإمبراطور ديوقلديانوس وكتب اسمه فى السنكسار، وأصبحت الكنيسة تحتفل بعيده مثل باقى القديسين العظماء..

شاول الطرسوسى كان أيضاً واحداً من الذين لا يدرون ماذا يفعلون ..

كـــان يقـــتحم الكـــنائس ويقتاد رجالاً ونساءً إلى السجن (أع٨: ٣).. وقد اشترك فى إضـــطهاد القديس اسطفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء (أع٧: ٥٨).. وكان مرعباً ومخـــيفاً.. ومـــع ذلك لم يكن يدرى ما ذا يفعل.. وظل هكذا حتى ظهر له رب المجد فى الطريق إلى دمشق، ووجده إناءً مختاراً.. وإجتذبه إليه فآمن، واعتمد، وصار اسمه بولس الرســـول، وبشـــر باسم المسيح، وتعب أكثر من جميع الرسل، ووقعت عليه إضطهادات وأتعاب أكثر من جميعهم، ونال إكليل الشهادة على يد الإمبراطور نيرون، وأصبح عموداً

---

١ – هى حالياً قرية الشيخ عبادة مركز ملوى بمحافظة المنيا .

مـــن أعمدة المسيحية، ومنارة من مناراتها العالية المضيئة وهو نفسه قال "ولكنى رُحمت لأنى فعلت ذلك بجهل" (١تى١: ١٣) ..

تـــرى مـــاذا كان سينتهى إليه مصير قديسنا بولس، لولا قول المسيح الحنون "يا أبتاه أغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون"..!

"يا أبتاه أغفر لهم". أنا لا أريد أن أنتقم من أحد.. لا أريد أن أعاملهم بالمثل. إن بعضاً من هؤلاء الذين صلبونى، **أنا ماضٍ لأعد لهم مكاناً.** ومتى أعددت لهم مكاناً، آتى وآخذهم إلىّ، حتى حيث أكون أنا يكونون هم أيضاً" (يو١٤: ٣) .

على أن قول السيد المسيح "يا أبتاه أغفر لهم"، لا تعنى أنه غفر لجميع صالبيه على الإطـــلاق، بـــلا استثناء.. فلا يمكن أن يتمتع بالمغفرة. من صالبيه وغير صالبيه إلا من ينطـــبق علـــيهم شـــرطان مبدئيان جوهريان، هما الإيمان والتوبة مع باقى وصايا الرب اللازمة للخلاص.. لأنه بدون ذلك، لا يمكن أن ينال أحد خلاصاً ولا مغفرة..

يا أبتاه أغفر لهم : للذين يؤمنون ويتوبون، ويعملون أعمالاً تليق بالتوبة.

لقـــد قال الكتاب "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد".. أحب العالم كله، وبذل الإبـــن لأجل العالم كله. ولكن هل تمتع العالم كله بالخلاص؟ كلا، فخلاص المسيح لم ينله إلا "كـــل من يؤمن به" ..لذلك قيل فى باقى الآية "لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون لـــه الحـــياة الأبدية" (يو٣: ١٦). هذا هو شرط الإيمان.. أما عن شرط التوبة فيقول عنه الرب "إن لن تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" (لو١٣: ٣) .

وهكـــذا فـــإن عبارة "إغفر لهم"، لا تعنى المغفرة ليهود اليوم.. لأنهم مايزالون باقين على يهوديتهم ،فى إنكارهم للمسيح، وفى إنكارهم لبتولية العذراء، وفى إعتقادهم أن يسوع الناصرى الذى ولد منذ ١٩٨٤ سنة كان ضالاً ومضلاً، فاستحق أن يصلبه آباؤهم. وبهذا يشتركون فى خطية آبائهم بموافقتهم لهم على ما فعلوه.. ويستحقون الدينونة..

أمـــا إن تابوا وآمنوا، وصاروا مسيحين، فإن الرب يغفر لهم، وعندئذ لا يدعون يهودا بعد..

إن الســـيد المســـيح قـــد قـــدم خلاصاً للعالم كله. ولكن لا يتمتع بهذا الخلاص سوى المؤمنين التائبين السائرين فى طرقه، المتمتعين بعمل الروح القدس فى أسراره.

هؤلاء المؤمنون التائبون، أغفر لهم يا أبتاه.. أما الباقون الذين أصروا على عنادهم،

فهــؤلاء قال لهم المسيح "حيث أكون أنا، لاتقدرون أنتم أن تأتوا" (يو٧: ٢٤). وقال لهم أيضا ستطلبوننى وتموتون فى خطيتكم.. إن لم تؤمنوا إنى أنا هو، تموتون فى خطاياكم".. ثــلاث مــرات فــى الإصحاح الثامن من الإنجيل لمعلمنا يوحنا الرسول يقول لهم "إن لم تؤمنوا بى، تموتون فى خطاياكم" (يو٨: ٢٤،٢١).

أمــا الذين فيهم بارقة أمل، ولو من بعيد، فهؤلاء مهما أخطأوا إليه ومهما اضطهدوه، ومهمــا طــردوه، فإنه يظل يردد فى سمع الآب، تلك العبارة الجميلة "يا أبتاه أغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون" .

من بين هؤلاء الذين طردوه ورفضوا أن يدخل تخومهم، أهل السامرة وتحمس تلميذاه يعقــوب ويوحنا، وطلبا إليه أن يأمر فتنزل نار من السماء فتفنى هؤلاء الذين طردوه، أما هو فأجاب تلميذيه قائلاً: "لستما تعلمان من أى روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفــس الناس بل ليخلص" (لو٩: ٥٢ – ٥٦). هذا ما قاله لتلميذيه. أما للآب فلا شك أنه قــال نفــس العبارة "يا أبتاه أغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون".. وهكذا صبر عليهم حتى عرفوه، فأحبوه، وآمنوا به (يو٤: ٤٢) .

إن عبارة "يا أبتاه أغفر لهم "تحمل عمق الحب، وعمق المغفرة. ولكى تسبر أعماقها تصورها بالنسبة إلى نفسك..

قد تستطيع أن تغفر لإنسان أتعبك.. أما أن يلفق إنسان حولك تهماً، ويحكم عليك ظلماً، ويثــير عليك الشعب والحكام ،ويهزأ بك، ويجلدك ، ويعلقك على صليب ،ويدق المسامير فــى يديــك وقدميك.. ثم بعد ذلك – وأنت فى عمق الألم – تستطيع أن تغفر له، وتصلى لأجله، وتدافع عنه.. فهذا يحتاج إلى حب فوق الطاقة، وفوق العادة ...

كثيرون آمنوا بالمسيحية من أجل هذه العبارة وحدها ...ياأبتاه إغفر لهم ..لأنى من أجــل هذا جئت.. هذا هو العزاء الذى يفرح قلبى وسط كل آلام الصليب، وسط كل آلام الهزء، وكل آلام التخلى..

إنهــم مغلوبــون من خطاياهم، مغلوبون من عمل إبليس فيهم، ومغلوبون أيضاً من ضــعف إرادتهم ومن جهلهم. شعورى نحوهم هو شعور إشفاق.. لست أذكر ما يعملونه فىّ، فالمحبة لا تطلب ما لنفسها (١كو١٣)، إنما أذكر أمامك حاجتهم إلى المغفرة...

إغفر لهم، لأنك بهذا تفرحنى، إذا أكون قد تممت رسالتى وحققت هدفى..

حقـــاً، لماذا تجسد المسيح؟ أليس من أجل أن الآب يغفر لهؤلاء؟ لماذا أخذ شكل العبد، وصـــار فـــى الهيئة كإنسان (فى٢: ٧)؟ أليس لكى يغفر لهم؟.. لماذا حمل خطايانا؟ لماذا علق على الخشبة؟ كل هذا بلا شك لكى يغفر لهم..

إن هـــذه العـــبارة هـــى بداية عهد الغفران، ليس الغفران الموعود به، وإنما الغفران المدفـــوع ثمنه.. إنها إعلان بأن العدل الإلهى قد استوفى حقه على الصليب.. إنها صك.. وثيقة المشترى الذى دفع الثمن ويريد أن يستلم...

إنـــه اشترانا بدمه، وبقى أن يأخذنا معه، لكى ندخل الفردوس معه، ونتمتع بالملكوت معـــه، وحيـــث يكون هو نكون نحن أيضاً.. وكأنه بهذه العبارة يقول للآب: ماذا تريد من هـــؤلاء؟ ما هو دينك عليهم؟ أليس هو الموت، أجرة الخطية؟ هوذا أنا أموت عنهم. هوذا أنا أوفى دينك عليهم. أطلقهم إذن من حكم الموت .إنك تأخذ الآن حقك بالتمام.. وبعد قليل سأقول لك "قد أكمل" فأغفر لهم..

إن الســـيد المسيح بهذه العبارة يعلن انتصاره على الشيطان. كل جهاد الشيطان كان فـــى إبعـــاد الناس عن الله، وفى إبعادهم عن المغفرة، وفى عرقلة طريق الخلاص، ولكن هـــوذا طريق الخلاص قد فتح للناس، واستطاع الرب المجروح لأجل معاصينا أن يرش دمه على الخيمة فيقدسها..

لقد انتصرت محبته على كراهية الناس "وأنتصر تواضعه على كبرياء الشيطان"..

كـــانوا يقولـــون لـــه إن كنت إبن الله أنزل من على الصليب. أما هو فأعلن أنه الإبن بقولـــه "يا أبتاه". ولكنه وهو الإبن سيبقى على الصليب، لكى يغفر لهم. ولو نزل من على الصليب ما استطاع أن يقول، أغفر لهم.. الآن استطاعت ذبيحة الحب أن تؤدى عملها فى المغفرة.

عبارة يا أبتاه أغفر لهم، هى العبارة التى يشتاق لسماعها كل الراقدين على رجاء من بـــدء الخلـــيقة كلها. إن كان هكذا قد أحب الرب صالبيه ومقاوميه وغفر لهم، فكم تكون بالحرى محبته لأحبائه ومريديه، وكم يكون عمق غفرانه وسمو مكافأته..

إنهـــا عـــبارة أذهلت كل الجنود المحيطين بالصليب. وأذهلت أيضاً الص اليمين الذى توجه إلى الرب بكلمته الثانية: "اليوم تكون معى فى الفردوس"..

الكلمة الثانية

الحق أقول لك إنكَ اليوم تكون معى فى الفردوس (لو٢٣: ٤٣)

أول إنسان خاطبه الرب على الصليب، كان هو هذا اللص.. لم يبدأ حياته باراً، بل صحبته الخطية حتى إلى الصليب. وكان وهو مصلوب يعيّر الرب، مشتركاً فى ذلك مع اللص الآخر (مت٢٧: ٤٣).. ثم تغيّر فجأة ودخل الإيمان إلى قلبه، فانقلب من معيّر إلى مدافع.. ومن مستهزئ إلى رجل صلاة وإيمان.

كيف وصل إلى هذا الإيمان، وإلى هذا التغير؟ كيف آمن بالرب، والرب فى آلامه لا فى مجده، فى استهزاء الناس به وليس فى سعيهم إليه طلباً للشفاء والبركة؟

لعل مغفرة الرب لصالبيه، أثرت فى اللص القاسى القلب لهذا التأثير العميق. وإذا بلطف الله يغلب قسوته.. أو لعله تأثر من وجه المسيح نفسه، من ملامحه، ومن نظراته، ومن حنان وعمق صوته.. ولعل الرب نظر إليه، فأذاب قلبه.. لسنا ندرى..

أو لعل هذا اللص كان عنده استعداد داخلى للتوبة، كان أرضاً صالحة لم تجد بعد من يفلحها، وينقيها من أشواكها، ويبذر فيها البذار الصالحة، فتنبت نباتاً حسناً..

لقد استطاع هذا اللص أن يصل إلى المسيح مع أصحاب الساعة الحادية عشرة أو فى الساعة الثانية عشرة. **فصلى صلاة واستجيبت بأسرع ما تكون الإستجابة..** كثيرون كانت لهم صلوات طويلة، بابتهالات وطلبات وتضرعات وعرق ودموع.. أما هذا اللص فبعبارة واحدة قصيرة، مركزة عميقة، استطاع أن يحصل على كل شئ.. وأصبحت صلاته هذه مصدر تأملات لكثيرين، ترددها الكنيسة كلها معه، وقد تعلمتها من هذا اللص العجيب..

هذا اللص الوحيد الذى أجابه المسيح بسرعة، بينما غيره كثيرون لم يرد عليهم الرب بكلمة واحدة..

تصوروا أن السيد المسيح لم يرد على كثيرين طول مدة المحاكمة والتعذيب والصلب.. "لم يفتح فاه، كشاه تساق إلى الذبح. وكنعجة صامتة أمام جازيها، فلم يفتح فاه"

(أش٥٣: ٧).. لـــم يـــرد على قيافا رئيس الكهنة إلا بعد أن استحلفه بالله الحى (مت٢٦: ٦٣، ٦٤). وبـــيلاطس الوالـــى الذى حاكمه كان متعجباً جداً من صمته (مت٢٨: ١٤). كثيرون استهزأوا به، فلم يرد عليهم، شتموه، فلم يرد عليهم. تحدوه وقالوا له "إن كنت ابن الله إنـــزل مـــن علـــى الصليب" (مت٢٧: ٤٠)، فلم يرد عليهم كذلك. اللص اليسار نفسه المصلوب إلى جواره كان يعيره ويتحداه قائلاً "إن كنت أنت المسيح، فخلّص نفسك وإيانا" (لو٢٣: ٣٩). فلم يرد على هذا أيضاً.

أمـــا هذا اللص اليمين فما أن قال له "أذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك" حتى تلقى الجواب بسرعة "الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس" (لو٢٣: ٤٢- ٤٣).

ما أعجب صحبة الرب لهذا اللص! كان زميلاً على الصليب، وزميلاً صالحاً!! وبلغت الصحبة مداها، أن الرب لم يكتفِ بصحبته له على الصليب، وإنما قرر أن تستمر الصحبة أيضـــاً فى الفردوس! كان يستطيع أن يعده قائلاً "اليوم تكون فى الفردوس". ولكنه قال له "تكون معى". يدخل فى معيته، وحيثما يكون الرب يكون معه أيضاً.. ما أسعده لصاً!.. لم يـــأنف الرب من هذا اللص، ولم يشمئز، بل على العكس وجد فيه قلباً مملوءاً بالفضائل، فـــبادلـــه الحديث على خشبة الصليب، وفرح أن يسعد قلب هذا اللص بوعد يطمئنه على مصيره قبل أن يلقى الموت...

ستكون معى فى الفردوس، لأن قلبك صار معى على الأرض. لأنك سلمتنى قلبك على الصـــليب، وســـلمتنى مصيرك، ولأنك تألمت معى، فلذلك سوف تتمجد معى أيضاً.. لقد صُلبت معى، وتألمت معى.. وستحيا معى أيضاً.

ما أعجب هذا اللقاء .. على الصليب !

كثيرون التقوا مع الرب فى الكنائس والمعابد، وآخرون التقوا به فى مخادعهم المغلقة علـــيهم ساعة الصلاة.. أما أن يكون مكان اللقاء على الصليب، فهذا عجيب حقاً. هل كان هذا اللص يفكر إنه إذا تاب فى يوم ما، والتقى بالرب يكون لقاؤه به فى مثل هذا الموضع!! حقاً إن "ملكوت الله لا يأتى بمراقبة" (لو١٧: ٢٠)...

لا نستطيع أن نعرف متى تعمل النعمة فى الإنسان، وكيف؟

إن الروح – كما قال الرب – يهب حيث يشاء (يو٣: ٨).. لقد عاش هذا اللص حياته كلهـــا فـــى الخطـــية، ولصـــقت به الخطية حتى على الصليب عندما كان يعيّر الرب مع زمـــيله.. فهل معنى هذا أن النعمة كانت قد حجبت وجهها عنه. أو أن الرب قد نسيه إلى

الانقضـــاء..؟! كلا، مراحم الرب كانت تنتظر الوقت المناسب لتعمل فيه.. ثم جاء زمان افتقاده ونال الخلاص، وهو على بُعد أشبار من الموت..

نحن لا نعرف من هم المختارون. من كان يظن أن هذا اللص سيصير واحداً منهم!! من كان يظن أنه فى ساعة واحدة سينال ما ناله غيره بجهاد عشرات السنوات؟! إننا نحكم حسب الظاهر، ونحتقر البعض، ونرثى للبعض، وربما يكونون أفضل منا بمراحل.. ومع ذلك نقول فى صدق إن هذا اللص، قد دخل الفردوس عن جدارة واستحقاق.

لقد كان عجيباً، وعجيباً جداً، فى كل ما فعله ..

أعترف بالمسيح رباً، فقال له "اذكرنى يارب".

واعترف به ملكاً، فقال له "متى جئت فى ملكوتك".

واعترف به مخلصاً، قادراً أن ينقله إلى الفردوس.

وعلـــى الصـــليب أعترف هذا اللص بخطاياه الشخصية، واعترف باستحقاقه للموت. ووبخ زميله اللص الآخر قائلا له "أما نحن فبعدلٍ (جوزينا)، لأننا ننال استحقاق ما فعلناه". وانتهر زميله بسبب تجديفه على السيد المسيح قائلاً لـــه "أوَلا تخاف الله إذ أنت تحت هـــذا الحكـــم بعيـــنه.. وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس فى محله" (لو٢٣: ٤٠- ٤١). وهكذا اعـــترف بـــبر المسيح وخلوه من الخطية، وبالتالى لا يكون قد صلب بسبب خطية لـــه، وبالاستنتاج يكون صلبه عن خطية غيره..

عجيب هذا حقاً، أن يكون الوحيد الذى دافع عن السيد المسيح وسط تلك الآلاف هو اللـــص اليميـــن!! لـــم يدافع عنه واحد من الإثنى عشر. لم يدافع عنه واحد من التلاميذ السبعين. لم يدافع عنه واحد من الذين شفاهم أو أقام موتاهم أو أخرج منهم الشياطين.. لم يدافـــع عنه أحد.. إجتاز المعصرة وحده.. والوحيد الذى دافع عنه، ولم يقبل كلمة إساءة توجـــه إليه، هو اللص اليمين!! من كان يظن فى جميع التلاميذ وفى جميع المؤمنين، أن الوحـــيد الـــذى يدافع عنه هو اللص!! حقاً – كما قال الرب – "انظروا، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار" (مت١٨: ١٠).

فـــلا تظـــن فى نفسك يا أخى أنك شئ، أو أنك أفضل من أمثال هؤلاء.. لا تظن فى نفسك أنك كأحد الرسل أو أحد الأحباء أو المريدين أو القريبين من الرب.. فقد سكت كل هؤلاء، لم يدافع واحد منهم عن المسيح، والذى دافع عنه هو لص لم يكن يتوقعه أحد، ولم يكن يسمع به أحد..

والجمـــيل فى هذا اللص – غير دفاعه عن المسيح – أنه كان مشغولاً بأبديته. كان مهـــتماً بإعداد العدة لمصيره الأبدى. هو أيضاً لم يكن يفكر فى آلامه الجسدية، وإنما فى مصيره بعد الموت. لذلك صرخ فى استرحام وفى استغفار "اذكرنى يارب".. أذكرنى فى مـــراحمك، وليس فى خطاياى. أو كما قال داود النبى "أذكر يارب مراحمك ورأفاتك فإنها ثابتة منذ الأزل. خطايا شبابى وجهالاتى لا تذكر. كرحمتك أذكرنى أنت، من أجل جودك يارب" (مز٢٥: ٦- ٧).

"اذكـــرنى" ولا تدخلنى فى زمرة أولئك الذين قلت لهم "إنى لم أعرفكم قط".. أذكر هذا الجوار.. **إنها ساعات خالدة في حياتى، تلك التى قضيتها إلى جوارك علىالصليب.. إنها أسعد ساعات حياتى،** أتمتع بشركة آلامك، وأفتخر بأنى "مع المسيح صلبت" (غل٢: ٢٠). فمن أجل هذا الجوار أذكرنى. لقد كان صلبى إلى جوارك عاراً لك، ولكنه فخر أبدى لى. تكفينى هذه الساعات السعيدة معك، ولكنى أريد أن أعتبرها كمجرد عربون..

إن عـــبارة "أذكـــرنى" التى أقولها لك، تعنى وجود علاقة سابقة. تعنى أننى معروف عندك، ومكتوب فى سفرك، ومنقوش على كفك.

لقـــد أحصيت مع أثمة (أش٥٣: ١٢)، وصلبت مع الخطاة. وإن حُسب هذا عاراً لك، لكنه نعمة لى وبركة.. ما ألذ وجودى إلى جوارك، إنه ينسينى كل آلامى فلا أشعر بها.. بـــل أشـــعر بـــروحك تتخلل كيانى كله، وتطهرنى وتقدسنى، وتجعلنى إنساناً آخر.. إنك كشعاع الشمس الذى قد يرقد إلى جوار أى جسم قذر، فلا يتسخ منه، بل يطهره.. **أنا معتز بصحبتك، ليتنى عرفتك من قبل.. فاذكرنى..**

ليـــت كل واحد فينا يصيح مع اللص قائلاً "أذكرنى يارب"، أذكر أن لك إبناً فى كورة بعـــيدة، وعبداً ضالاً خارج الحظيرة. أذكرنى فى ضعفى، وفى ذلى، وفى سبيى، أذكرنى فـــى ســـقوطى لكى تقيمنى وترد نفسى إليك. اذكرنى لأنى واحد من الذين "ليس لهم أحد يذكرهم". ليس لى إنسان يلقينى فى البركة بأبراً (يو٥: ٧).

إن قصة اللص اليمين هذه تعطينا فكرة أن ساعة الموت تختلف من إنسان إلى آخر. لا نقـــل إنه ذكر الرب وتاب إذ كان لابد أن يفعل هكذا فى ساعاته الأخيرة. كلا، فاللص الآخـــر كان مثله فى ساعاته الأخيرة ومع ذلك يقول الكتاب إنه كان يجدف على المسيح، ومـــا كـــان يخاف الله، وما كان يهتم بمصيره الأبدى. وإنما كان كل همه أن يتخلص من الصـــليب (لو٢٣: ٣٩)، ليعود فيتمتع بهذا العالم.. وهكذا استحق الإنتهار من زميله. **وفى**

ســـاعة الموت: بدلاً من أن يتوب عن خطاياه، كان يرتكب خطايا جديدة، بقسوة قلب!!.. كان هذا اللص اليسار قريباً من المسيح بالجسد، كان إلى جواره. أما قلبه فكان مبتعداً عنه بعـــيداً بما لا يُقاس، حتى فى ساعة الموت!! إن ساعة الموت لم تستطع أن تذكره بالتوبة، ولا أن تدفعه إلى الإستعداد.. إطلاقاً..

إنه لم يتأثر بمغفرة المسيح لصالبيه: ولم تملكه الغيرة من أجل الوعد الذى نال زميله بدخـــول الفردوس ولم يؤمن إذ رأى السماء، والأرض ماجت مرتعدة، والصخور تشققت، والظلمـــة سادت على الكون.. بل كان منشغلاً عن أبديته، حتى فى ساعة الموت. مازال يحـــب العـــالم ومعاودة المعيشة فيه.. لا يريد المسيح ولا صحبته، وإنما يحب أن يستغله كوسيلة للنزول من على الصليب..

إنه درس قاسٍ لكل من يؤجل التوبة، وفى ظنه أنه سيتوب فى أواخر أيامه، التى لا يعـــرف لهـــا موعـــداً!! كثـــير من الناس يكونون فى ساعة الموت مثل اللص الذى على الشمال، يجدفون ويتذمرون ويشتهون العالم الحاضر!! من كان عبداً لعادة من الصعب أن يبطلها بالتأجيل، حتى لو دقت يداه وقدماه بالمسامير، وكان بينه وبين الموت دقائق!! إذ لم يـــتعاون الإنســـان مع عمل النعمة فى قلبه ساعة الموت، فمن الممكن أن يخطئ فى تلك الساعة أيضاً.

كثيرون فى ساعة الموت يبكون بدموع.. ليس بكاء على خطاياهم، وإنما لأن الموت سيحرمهم من ملاذ الحياة!! يبكون لأن الموت سيفصلهم عن أحبائهم وعن شهواتهم.. ما يزال العالم حلواً فى قلوبهم، حتى فى ساعة الموت.. لا تظنوا أن الموت – بالضرورة – يجلب للإنسان خشوعاً، ليس لكل الناس. إن اللص اليمين استفاد من ساعة الموت، واللص اليســـار لـــم يستفد.. وبينما كان اللص اليسار يجدف ويعيّر، كان زميله يصلى، ويتضرع قائلاً "أذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك".

والـــرب لم يتخل عن هذا اللص التائب. ولم يتمهل عليه، وإنما كانت استجابة صلاته أسرع مما كان يتوقع. إن اللص فى آخر ساعاته لم يفقد رجاءه فى مراحم الرب. والرب أيضـــاً قـــوى رجاءه وأكده تأكيداً بقوله "الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى..". إنك الآن معى، وبعد قليل ستكون معى. ولكن شتان بين الحالتين.. كما كنت معى فى الألم ستكون معى "فى الفردوس" أنت الآن تتعذب، وهناك تتعزى..

وبقــول الــرب "فـــى الفردوس" إنما صحح للص خطأ وقع فيه. وصححه له بنفس طــريقة المســيح الهادئة اللطيفة.. لقد قال اللص "أذكرنى يارب متى جئت فى ملكوت". وحســناً آمن أن للمسيح ملكوتاً روحياً فى السموات، وأن مملكته ليست من هذا العالم كما يطلــب العالميون.. ولكن ملكوت السموات لا يدخله الناس إلا بعد القيامة العامة، أما بعد الموت مباشرة، فيذهبون إلى مكان الإنتظار. ومكان انتظار الأبرار هو الفردوس. وهكذا لم يقل السيد للص "اليوم تكون معى فى ملكوتى" وإنما "فى الفردوس".. وبهذا باشر الرب وظيفــته كمعلــم صــالح، حتى على الصليب، بنفس طريقته الوديعة فى التعليم، شارحاً للمخطئ خطأه دون أن يقول له أنك أخطأت.

ســتكون معى فى الفردوس، كعربون.. وستأتى معى على السحاب فى مجيئ الثانى. وســتقف علــى يميــنى فى يوم الدينونة، كما أنت الآن عن يمينى على الصليب، رمزاً للأبرار.. وستملك أيضاً معى فى ملكوتى. وتكون معى فى الأبدية التى لا تنتهى.. ها أنا معك كل الأيام وإلى إنقضاء الدهر..

لعــل هــذا الوعد قد جعل اللص ينتظر الموت بفرح، ليكون مع المسيح، فذاك أفضل جــداً.. هــنا نقول ما ألذّ الموت! "أين شوكتك يا موت"!! إن الموت مرعب للأشرار لكنه مفــرح للذيــن يرقدون على رجاء، للذين نالوا المواعيد، ونظروا الأكاليل، واطمأنوا إلى مصيرهم بعد الموت، ورنّ فى آذانهم قول المسيح "اليوم تكون معى فى الفردوس".

وبقوله "تكون معى فى الفردوس"، لم يعلن للص غفران خطيئته فحسب، وإنما أعلن أيضــاً فتح باب الفردوس لأول مرة بعد خطيئة آدم. وكان اللص أول من أعلنت له هذه الحقــيقة. هــذا الفــردوس الذى كان مغلقاً منذ ذلك الزمان، لا يستحق أحد دخوله بسبب الخطية. وهذه العبارة التى قالها الرب للص، نتذكرها كلما نودع نفساً رحلت عن عالمنا. فنقول فى صلاة الجناز "إفتح لها يارب باب الفردوس كما فتحته لذلك اللص".

إن المغفــرة الــتى نالهــا اللص هى عمل إلهى. وفتح باب الفردوس هو عمل إلهى أيضــاً. عمــلان قــام بهما الرب على الصليب يثبتان لاهوته. إنه لم يصلِ لأجل اللص للمغفــرة ولدخــول الفردوس، إنما قال له بسلطان "اليوم تكون معى..". وكأنه بهذا باشر عمله كديان عادل من حقه أن يصدر حكماً فى أبدية إنسان، فحكم للص بدخول الفردوس فــى نفــس اليوم. مَن مِن البشر له سلطان أن يفعل هذا؟! إنه سلطان إلهى لا يقدر عليه

إنســـان.. كذلـــك فتح الفردوس: أمر لم يقوَ عليه أحد من قبل، لا رئيس آباء ولا نبياً. من استطاع أن يفتح باب الفردوس المغلق، أو من استطاع أن يدخله؟! لا أحد. كلهم انتظروا حـــتى يـــأتى المخلـــص فيفتح لهم. إنه عمل إلهى.. وهو أيضاً إعلان عن كفاية هذا الدم المسفوك عنا لفتح باب الفردوس.

حقـــاً إنه صاحب السلطان "يفتح ولا أحد يغلق. ويغلق ولا أحد يفتح" (رؤ٣: ٧) (أش ٢٢: ٢٢). هـــو الـــذى بيده مفاتيح الهاوية والموت (رؤ١: ١٨). بل بيده مفاتيح السماء والأرض، وبســـلطانه يهـــبها لتلامـــيذه، وكلائـــه علـــى الأرض. هو الذى فتح للعذارى الحكـــيمات. وإلـــيه تضرعت الجاهلات قائلات "ياربنا، ياربنا، إفتح لنا" (مت٢٥: ١١). ولكنه لا يفتح فردوسه، إلا للذين فتحوا له قلوبهم، كاللص اليمين الذى استحق أن يقول له "اليوم تكون معى فى الفردوس"...

وعـــبارة "**الـــيوم تكـــون معى" دليل أكيد على عدم وجود مطهر**، كما يظن البعض. فاللص دخل الفردوس فى نفس يوم وفاته، دون أن يقضى فى هذا المسمى بالمطهر ساعة واحـــدة!!.. كما أن عبارة "اليوم" تكون معى، تنفى الفكرة التى بها يظن البعض أن روح الميت تظل باقية تتردد على أماكن سكناها حتى اليوم الثالث إلى أن تصلى الكنيسة صلاة فـــى اليوم الثالث لصرف تلك الروح!!.. هل بقيت روح اللص اليمين إلى اليوم الثالث أم فى نفس اليوم كانت فى الفردوس؟!..

وبعـــبارة الفـــردوس شرح الرب مصير الإنسان بعد الموت، وكيف أن الفردوس هو مكان الإنتظار للأبرار، وكيف أنهم سيكونون هناك مع المسيح يتمتعون به.

الـــيوم تكـــون "معى". إنها متعة جميلة أن نكون مع الرب. إن الوجود مع الرب هو أجمـــل مـــن الفردوس أو هو أجمل ما فى الفردوس أو هو الفردوس ذاته، بل هو النعيم الحقيقى، أن نوجد معه. هذا هو ما قاله الرب، وما وعد به.. "آتى وآخذكم إلىّ، حتى حيث أكـــون أنا تكونون أنتم أيضاً" (يو١٤: ٣). ما أجل هذا الوعد. إنه أملنا الذى نسعى إليه، ونتشهاه..

إن الحياة الروحية كلها هى "معيّة مع الرب"..

بهـــذا الوعـــد، أفـــرح الرب قلب اللص، ولم تشغله آلام الصلب عن التحدث مع هذا الإنســـان وطمأنـــته وإسعاده.. ونسى السيد الرب آلامه المبرحة، نسى الشوك والمسامير

وألم الجروح وجسده المنهك، وشغل وقته بالإصغاء إلى هذا اللص والتحدث معه وطمأنه قلـــبه.. حقاً إن "المحبة لا تطلب ما لنفسها" (١كو١٣: ٥). بل ما هو للآخرين (١كو١٠: ٢٤). ومـــا أكـــثر ما يأتى إلينا إنسان فى وقت تعبنا أو مشغوليتنا، فنتبرم به، ونتضايق، ونقول له "طيب يا أخى بعدين، أنا مش فاضى لك دلوقتى، إستنى شوية". أما السيد المسيح فحـــتى على الصليب، لم يقل مثل هذه العبارات. وإنما على الرغم من آلامه أعطى اللص الاهتمام الذى يحتاج إليه، واستجاب طلبته وأسعد قلبه. وأرانا أنه حتى على الصليب يمكن القيام بخدمة للآخرين..

وفى الاهتمام باللص يُظهر لنا الرب أهمية العمل الفردى إلى جوار العمل الجماعى. فبالإضـــافة إلى عمل الفداء العظيم المقدم للعالم أجمع، لكل من يؤمن به، وبالإضافة إلى غفرانه لصالبيه، كان لـــه أيضاً عمل فردى مع اللص. لأن الفرد – عند المسيح – لا يتوه وسط الجماعة.. ما تزال له قيمته، وله اهتمامه..

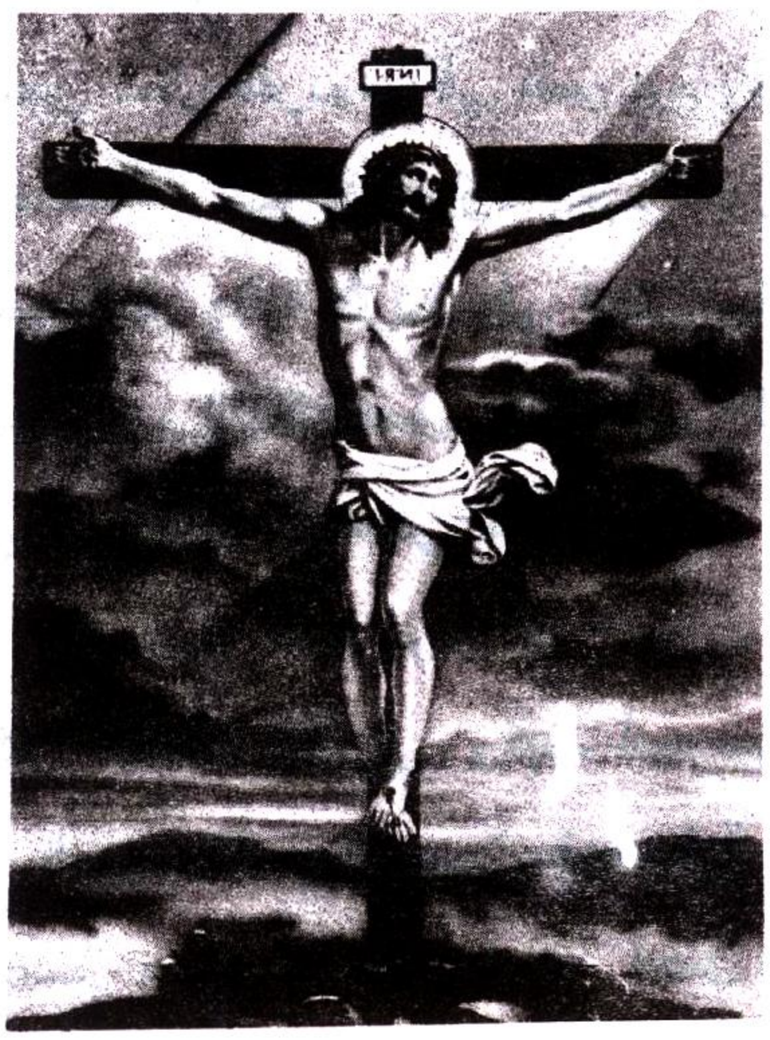

وهكذا كان السيد المسيح فى كل كرازته على الأرض يعمل فى الميدانين معاً: العمل الجمـــاعى والعمل الفردى: العمل الجماعى وســـط الجماهـــير الكثـــيرة، وسط الجموع المـــزدحمة حوالـــيه فى عظته على الجبل، ووســـط الخمسة الآلاف الذين أشبعهم بخمس خبزات وسمكتين.. وله العمل الفردى وسط الإثنى عشر، أو وسط ثلاثة منهم هم بطرس ويعقـــوب ويوحنا، أو مع نيقوديموس، أو فى بيت مريم ومرثا، أو مع المرأة السامرية عند البئر...

إن الله لا ينســـى الفـــرد وســـط الجماعـــة. لا يضيع فرد فى زحمة الناس. لا يضيع الخـــروف الضـــال فى زحمة الاهتمام بالتسعة والتسعين الباقين.. لا يضيع اللص اليمين وسط الاهتمام بخلاص العالم كله.

الكلمة الثالثة هوذا إبنك... هوذا أمك (يو١٩ :٢٦، ٢٧)

كان الإهتمام بالآخرين هو أول ما يشغل الرب على الصليب. فكما أهتم بصالبيه، وقال "يا أبتاه إغفر لهم" وكما اهتم باللص اليمين ووعده قائلاً "اليوم تكون معى فى الفردوس"، اهتم أيضاً بأمه، وعهد برعايتها إلى تلميذه الحبيب يوحنا.

عهد بالبتول إلى تلميذه البتول ..

عهد بأمه التى حملته كثيراً على صدرها، إلى تلميذه الحبيب الذى أتكأ كثيراً على صدره. عهد بأمه التى وقفت إلى جوار صليبه، إلى تلميذه الوحيد الذى تبعه حتى الصليب.

عهد بأمه التى حملت فى داخلها جمر لاهوته، إلى تلميذه الذى كتب إنجيلاً فيما بعد يثبت فيه لاهوته.

قال لها "هذا هو ابنك. وقال له "هذه هى أمك".

ومن ذلك الحين أخذها التلميذ إلى بيته (يو١٩: ٤٧).

وبهذا أعطانا الرب مثالاً عن الاهتمام بالأقرباء حسب الجسد، وبخاصة الأم. لقد اهتم بهذا المستودع الذى حمله تسعة أشهر، وبهذه الأم التى اهتمت به قبلاً، والتى عاش خاضعاً لها (لو٢: ٥١).

إن الشخص فى آلامه يكون موضع اهتمام الناس به. أما المسيح فى آلامه، فكان

هو المهتم بغيره..

كم بالحرى الآن وهو فى راحته ، يهتم بنا بالأكثر..

اهتمامه الأول وجهه إلى غفران الخطايا، وبعد ذلك اهتم بالرعاية الاجتماعية. وكانت الأم هى أول من اهتم به فى هذه الرعاية.

لقد ظن البعض – عن سوء فهم – أن السيد الرب فى تركيزه على العلاقات الروحية، قــد ابطــل الاهتمام بهذه العلاقات العائلية فى قوله "من هى أمى، ومن هم أخوتى.. الذى يفعل مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى" (مت١٢: ٤٨- ٥٠). ولكن هذا الفهم الخاطئ ألغاه الرب على الصليب.

إن الــتكريس، والــتفرغ لخدمــة الرب، والانشغال بالأسرة الكبيرة التى هى الكنيسة الجامعة،كل ذلك لا يعنى إهمال الإنسان لأقربائه وخاصته، ولاسيما أهل بيته (١تى٥: ٨). وكل ذلك لا يعفى الإنسان من إكرام والديه أو من الاهتمام بأمه.

وكأنما كان هناك موعد بين السيد المسيح وأمه القديسة العذراء. كان وجهها الطاهر أول وجه يراه عند مجيئه إلى هذا العالم بالجسد، وكان آخر وجه يراه قبيل تسليمه الروح فى يدى الآب.. إنه قلب الأم المحب الذى يسعىَ وراء الابن أينما كان، ويلازمه فى آلامه فــى حب.. ويناجيه بتلك العبارة المؤثرة "أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص. وأما أحشائى فتلتهب بالنار عند نظرى إلى صلبوتك الذى أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابنى إلهى".

وهو أيضاً قلب الابن الذى يهتم بأمه وهو فى عمق آلامه.

وهكــذا وجد السيد المسيح من اللازم أن يعتنى بأمه فى آلامه، ويقول لها كلمة تعزية بيــنما يجوز فى نفسه سيف (لو٢: ٣٥).. وجد من المناسب لــه كابن أن يعزى أمه فى آلامهــا. **وقد عزاها بثلاثة أمور: بالحديث معها، وبالعناية بها وتدبير أمورها. ويمنحها إبناً روحياً يؤنس وحدتها..**

وحديــث الرب مع أمه على الصليب، يختلف عن حديثه مع اللص اليمين. اللص هو

الـــذى بدأ الكلام، والرب رد عليه. أما مع القديسة مريم، فالرب هو الذى بدأ الكلام.. إنها أمـــه. لا ينـــتظر حتى تكلمه فيرد عليها. ولا ينتظر حتى تشكو إليه فينظر فى شكواها.. وهى لن تشكو. فقد تعودت العذراء أن تصمت. حتى إلى جوار الصليب، لم يقل أحد إنها كانـــت تصرخ أو تندب، إنما كانت رصينة ورزينة فى ألمها، وصامتة. وكان الرب يفهم صمتها ويسمعه، ويعرف دواخل قلبها ومشاعرها. فكلمها دون أن تطلب. وأطاعت كلامه، وذهبت مع التلميذ الحبيب إلى بيته..

وكانت العذراء بركة ليوحنا، وبركة لبيته، منحه المسيح إياها، مكافأة له على حبه.. أخذهـــا التلمـــيذ كجوهـــرة ثمينة أغلى من العالم كله.. وظلت فى بيته وديعة غالية حتى تنيحت.. ويُقال أن يوحنا الرسول لم يبرح أورشليم إلا بعد نياحة العذراء.. إن كان يوحنا قـــد وصـــل في حبه أنه تبع المسيح إلى الصليب، وظل واقفاً إلى جواره، فيجب أن ينال مكافـــأة على ذلك، هنا وفى الأبدية.. أما هنا، فقد نال بركة العذراء وإقامتها فى بيته.. إن كل الذين يتبعون المسيح، لابد أن يغترفوا من بركاته ومن نعمه..

والعـــذراء أخذت يوحنا لها ابناً. أعطاها الرب أكثر تلاميذه حباً وعاطفة ورقة وتعلقاً وإخلاصـــاً.. يوحـــنا الحبيب أكثر من تكلم من الرسل عن المحبة.. هو الذى قال إن "الله محـــبة" (١يو٤: ١٦)، هو التلميذ الذى كان "يتكئ فى حضن يسوع"، وكان "يسوع يحبه"، إنه أكثر إنسان يقدم للعذراء صورة إبنها..

كان يبدو أن المسيح على الصليب لا يملك شيئاً. حتى ملابسه، أخذوها واقتسموها فيما بيـــنهم. **ولكـــنه كـــان يملـــك يوحنا، فأعطاه لأمه، يوحنا الذى وهب قلبه للمسيح، فأخذ المسيح هذا القلب، ووهبه لأمه.. وهكذا جمع الرب محبيه معاً.. واهتم بأمه عاطفياً، كما اهتم بها مادياً..**

ترى من الذى كان يهتم بالآخر: العذراء أم يوحنا.. كانت العذراء فى بيت يوحنا، لا لـــتأكل منه، وإنما لتملأه بركة ونعمة.. ولكى تمنحه أيضاً معرفة بالمسيح، أعمق من كل من يعرفونه، وأوسع..

نلاحـــظ أن كـــون المســـيح يعهد بأمه إلى تلميذه يوحنا، يحمل دلالة أكيدة على أن السيدة العذراء لم يكن لها ابناء آخرون بعد المسيح كما يدّعى البروتستانت. لأنه لو كان لهـــا أبناء، لكانوا أولى برعايتها وبنوال بركتها من أى شخص غريب.. لقد كانت العذراء وحيدة فى ذلك الوقت: ليس لها أبناء، ويوسف النجار قد تنيح منذ زمن. فعهد بها المْسيح إلى تلميذه..

وعبارة "هذا هو ابنك" تعطينا فكرة عن البنوة الروحية كما توضح لنا كرامة العذراء بالنسبة إلى آبائنا الرسل أنفسهم...

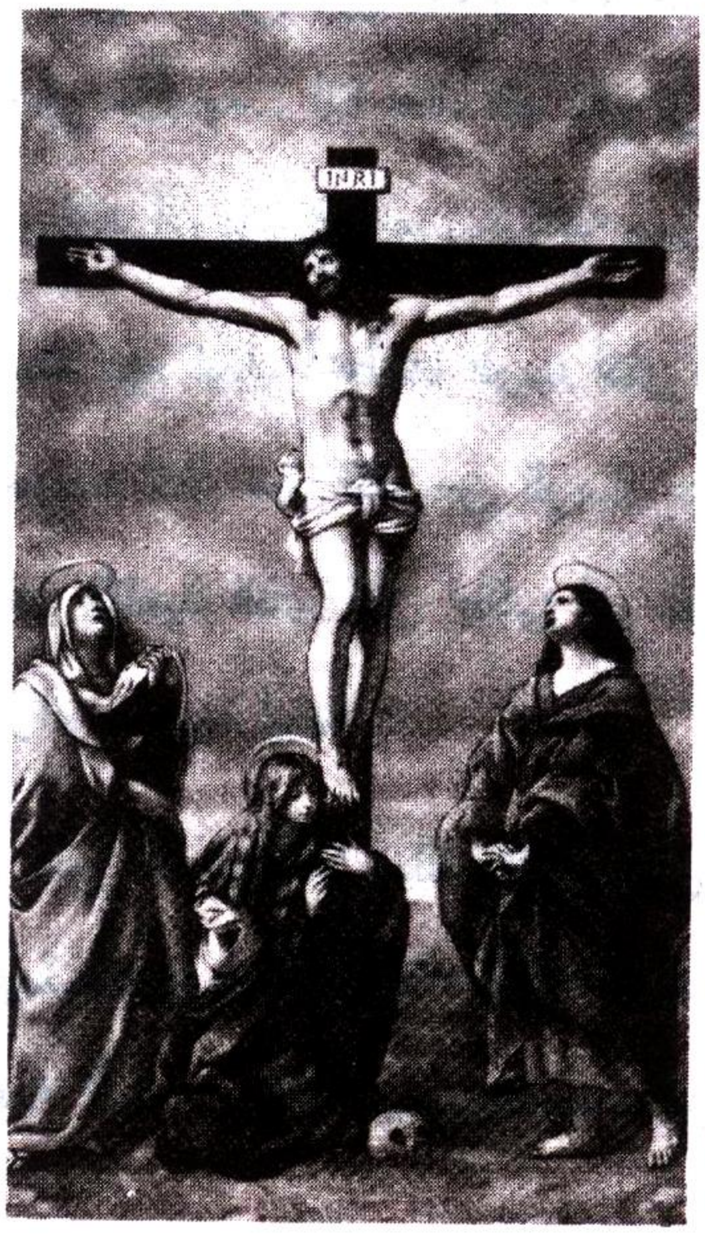

الكلمة الرابعة

إلهى إلهى لماذا تركتنى (مت٢٧: ٤٦)

هذه العبارة لا تعنى أن لاهوته قد ترك ناسوته، ولا أن الآب قد ترك الابن.. لا تعنى الانفصال، وإنما تعنى أن الآب قد تركه للعذاب.

إن لاهوته لم يترك ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين.. بهذا نؤمن، وبهذا نصلى فى القداس الإلهى.. ولو كان لاهوته قد انفصل عنه، ما اعتبرت كفارته غير محدودة، تعطى فـــداءً غير محدود، يكفى لغفران جميع الخطايا لجميع البشر فى جميع الأجيال.. إذن فلم يحدث ترك بين لاهوته وناسوته..

ومن جهة علاقته بالآب، فلم يتركه الآب "لأنه فى الآب، والآب فيه" (يو١٤: ١١).

إذن ما معنى عبارة "لماذا تركتنى"؟

لـــيس معناها الانفصال، وإنما معناها: تركتنى للعذاب. تركتنى أتحمل الغضب الإلهى علـــى الخطية. هذا من جهة النفس. أما من جهة الجسد، فقد تركتنى أحس العذاب وأشعر به. كان ممكناً ألا يشعر بألم، بقوة اللاهوت.. ولو حدث ذلك لكانت عملية الصلب صورية ولم تتم الآلام فعلاً، وبالتالى لم يدفع ثمن الخطية، ولم يتم الفداء..

ولكـــن الآب تـــرك الابـــن يتألم، والابن قبل هذا الترك وتعذب به. وهو من أجل هذا جـــاء.. كـــان تـــركاً باتفاق.. من أجل محبته للبشر، ومن أجل وفاء العدل.. تركه يتألم ويبذل، ويدفع، دون أن ينفصل عنه..

لـــم يكن تركاً أقنومياً، بل تركاً تدبيرياً.. تركه بحب "سر أن يسحقه بالحزن" (أش٥٣: ١٠).

مثال لتقريب المعنى :

لـــنفرض أن طفلاً اصطحبه أبوه لإجراء عملية جراحية له، كفتح دمل مثلاً أو خراج. وأمســـكه أبوه بيديه "وبدأ الطبيب يعمل عمله، والطفل يصرخ مستغيثاً بأبيه "ليه سبتنى". وهـــو فى الواقع لم يتركه، بل هو ممسك به بشدة، ولكنه قد تركه للألم، وتركه فى حب.. هذا نوع من الترك، مع عدم الانفصال.. نقوله لمجرد تقريب المعنى، والقياس مع الفارق.

إن عـــبارة "تركتنى" تعنى أن آلام الصلب، كانت آلاماً حقيقية. وآلام الغضب الإلهى كانـــت مـــبرحة.. فـــى هذا الترك تركزت كل آلام الصليب. وكل آلام الفداء.. هنا يقف المســـيح كذبـــيحة محـــرقة، وكذبيحة إثم تشتعل فيه النار الإلهية حتى تتحول الذبيحة إلى رماد، وتوفى عدل الله كاملاً..

كثـــير مـــن المفسرين يرون أن الرب بقوله "إلهى إلهى لماذا تركتنى" إنما كان يذكر الـــيهود بالمزمور الثانى والعشرين الذى يبدأ بهذه العبارة. كانوا "يضلون إذ لا يعرفون الكتـــب" (مت٢٢: ٢٩)، بينما كانت هذه الكتب "هى التى تشهد لـــه" (يو٥: ٣٩) فأحالهم السيد المسيح إلى هذا المزمور بالذات. وكانوا لا يعرفون المزامير بأرقامها الحالية، وإنما يسمون المزمور بأول عبارة فيه، كما يفعل الرهبان فى أيامنا..

وماذا فى هذا المزمور عنه؟

فيه "ثقبوا يدىّ وقدمىّ، وأحصوا كل عظامى.. وهم ينظرون ويتفرسون فىّ. يقسمون ثيابى بينهم، وعلى قميصى يقترعون" (ع١٧، ١٨). وواضح أن داود النبى الذى قال هذا المـــزمور لـــم يثقب أحد يديه ولا قدميه، ولم يقسم أحد ثيابه، ولم يقترعوا على قميصه.. وإنمـــا هذا المزمور، قد قيل بروح النبوة على المسيح.. وكأن المسيح على الصليب يقول لهم: أذهبوا واقرأوا مزمور "إلهى إلهى لماذا تركتنى" وانظروا ما قيل عنى.. تروا أنه قيل فيه عنى أيضاً:

عـــار عـــند البشـــر، ومحتقر الشعب. كل الذين يروننى يستهزئون بى يفغرون الشفاه ويغضون الرأس قائلين: إتكل على الرب فلينجه، لينقذه لأنه سر به" (ع٦- ٨).

ويعوزنـــا الوقـــت إن فحصـــنا كل المزمور.. إنه صورة واضحة لآلام المسيح على الصليب. وجههم إليه، وفتح أذهانهم ليفهموا الكتب (لو٢٤: ٤٥).

كـــل نـــص المزمور بدأ يتحقق، لذلك قال بعد حين "قد أكمل". ولكن لماذا لم يقل "قد

أكمل" مباشرة بعد "إلهى إلهى لماذا تركتنى"؟ لأن هناك عبارة أخرى فى المزمور لم تكمل بعـــد وهـــى عبارة "يبست مثل شقفة قوتى، ولصق لسانى بحنكى" (ع١٥). إن هذه أيضاً ستتحقق بعد حين عندما يقول "أنا عطشان". لذلك قال بعدها "قد أكمل".

ولكن لماذا قال المسيح "إلهى ، إلهى"؟

لقد قالها بصفته نائباً عن البشرية. قالها لأنه "أخلى ذاته، وأخذ شكل العبد، صائراً شبه الـــناس، وقد وُجد فى الهيئة كإنسان" (فى٢: ٧، ٨). قالها لأنه "وضع نفسه" و"أطاع حتى المـــوت، مـــوت الصليب" (فى٢: ٩). إنه يتكلم الآن كابن للإنسان، أخذ طبيعة الإنسان، وأخذ موضعه، ووقف نائباً عن الإنسان وبديلاً عنه أمام الله، كابن بشر، وضعت عليه كل خطايا البشر، وهو الآن يدفع ديونهم جميعاً..

هنا نرى البشرية كلها تتكلم على فمه.. وإذ وضعت عليه كل خطايا البشر، والخطية انفصـــال عن الله، وموضع غضب الله، لذلك تصرخ البشرية على فمه "إلهى، إلهى، لماذا تركتنى"؟..

لقد ناب السيد المسيح عن البشرية فى أشياء كثيرة، إن لم يكن فى كل الأشياء!!

نـــاب عـــنا فى الصوم: لم يستطع آدم وحواء أن يصوما عن الثمرة المحرمة، وقطفا وأكـــلا، وبدأ السيد حياته بالصوم حتى عن الطعام المحلل. لم يكن فى حاجة إلى الصوم، ولكنه "صام عنا أربعين ليلة" كما تقول التسابيح الكنسية.

ونـــاب عنا فى طاعة الناموس: "الرب من السماء أشرف على بنى البشر، لينظر هل مـــن فـــاهم طالـــب الله. الجميع زاغوا وفسدوا. ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد" (مـــز١٤: ٢، ٣). وجـــاء المســـيح، فناب عن البشر فى طاعة الآب، ونفذ الناموس لكى "يكمل كل بر" (مت٣: ١٥). كما ذكر وقت العماد.. وهكذا ناب عن البشرية فى تقديم حياة طاهرة مقبولة أمام الله الآب..

وناب عنا أيضاً فى الموت وفى العذاب وفى دفع ثمن الخطية و"الذى بلا خطية صار خطـــية لأجلـــنا" (٢كو٥: ٢١). واحتمل كل لعنة الناموس. واحتمل كل غضب الله على الخطاة بكل ما فيه من مرارة. وكنائب عن البشرية قال "إلهى إلهى لماذا تركتنى"..

وهذا الذى أعان الكل ولم يترك أحداً، تركه الكل حتى الآب.. وبهذا دفع ثمن الخطية، وتحمل الغضب، وخرج منتصراً بعد أن جاز معصرة الألم وحده، نفساً وجسداً..

وفى هذا كل أعطانا درساً. لكى نحترس نحن.

إن كانت الخطية تسبب كل هذا الترك، وكل هذا التخلى، وكل هذا الألم، فلنسلك نحن بتدقــيق (أف٥: ١٥). ولنخف أن نترك الرب لئلا يتركنا. فإن الابن نفسه قد ترك. وألم الترك لا يُطاق. وفى كل ذلك فلنشكر ربنا يسوع المسيح ونسبحه على كل هذا الحب وهذا البذل..

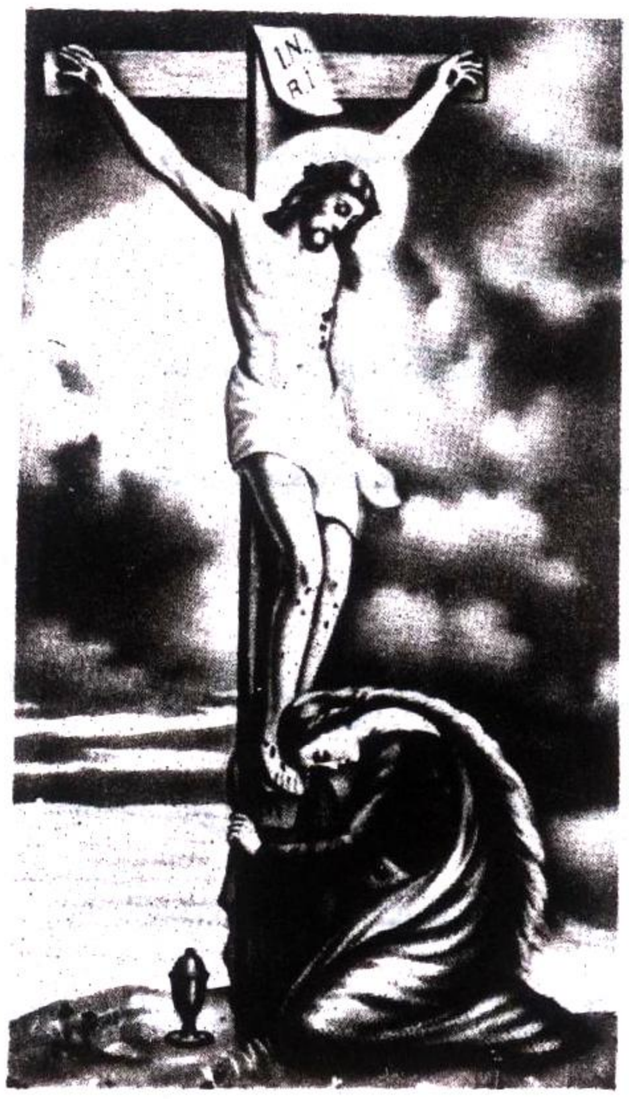

إن عــبارة "لماذا تركتنى"، تعطينا الكثير من العزاء كلما نقع فى الضيقات.. "إن كان الله الآب لــم يشفق على إبنه" (رو٨: ٢٢). وســلمه لهذا العذاب والحزن، فلماذا نتذمر نحن على الآلام التى يسمح بها الآب؟!.. إن كــان الآب قــد سُر أن يسحق بالحزن ابنه الوحيد الحبيب الذى قال عنه: "هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت" (مت٣: ١٧). ومع ذلــك فنحــن لم نتعرض لشئ من كل آلام المســيح على الرغم من استحقاقنا لكل ألم، فلماذا إذن نتذمر على الضيقات؟

إن الابــن شــرب الكأس التى قدمها له الآب، وقــال له "لتكن مشيئتك". وأطاع حتى الموت، موت الصليب، بكل خضوع.

أمــا عبارة "لماذا تركتنى"، فلم تكن نوعاً من الإحتجاج أو الشكوى – كما قلنا – إنما كانــت مجــرد تسجيل لآلامه، وإثبات حقيقتها، وإعلاناً بأن عمل الفداء سائر فى طريق التمام...

الكلمة الخامسة

أنا عَطشان (يو١٩: ٢٨)

مـــن أجل خطاياى – أيها الأخ – ومن أجل خطاياك، جف حلق الرب على الصليب، و"لصق لسانه بحنكه" ويبست مثل شقفة قوته" (مز٢٢: ١٥)..

مياه جسده قد تصفت ونزفت، وذلك لأسباب كثيرة:

بعضـــها لأجل العرق الكثير الذى سال منه كقطرات دم، وهو يجاهد لأجلنا فى بستان جثسيمانى (لو٢٢: ٤٤). والعرق الذى سال منه فى الطريق وهو يحمل الصليب، وطوال المـــدة تحت أشعة الشمس المحرقة فى نصف النهار.. وبخاصة من أجل التعب والإرهاق والإنهاك الذى تعرض له فى كثرة المحاكمات وكثرة اللطمات..

يضـــاف إلـــى كل هذا، الدم الكثير الذى نزف منه، بسبب الجلد المريع، وبسبب إكليل الشوك، وبسبب المسامير..

لكل ذلك جف حلقه، واحتمل حتى لم تبق فى جسده قوة، فقال "أنا عطشان"..

وبهـــذا أعلن أن الطّرق أخذ سبيله إلى الحديد المحمى بالنار، أو أعلن أن النار بدأت تلتهم ذبيحة المحرقة.. أو أعلن أن العدل الإلهى يتقاضى أجره، وأن اللاهوت – كعهده – لـــم يـــتدخل لتخفيف الألم عن الناسوت، فكان ألماً كاملاً، تتسم منهن الآب رائحة الرضا، وعـــبّر عـــنه الابن بعبارة "أنا عطشان".. فليخز الآن أوطيخا الذى قلل من حقيقة ناسوت الرب. فلو لم يكن ناسوته كاملاً، ما قال "أنا عطشان"..

عجيـــب أن يعطش الينبوع، الذى يهب الماء الحى لجميع العطاش (يو٧: ٣٧). الذى قال للمرأة السامرية "من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذى أعطيه، يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية" (يو٤: ١٤).

ماذا كان يقصد بعبارة "أنا عطشان"؟

لاشـــك أنه كان عطشاناً فعلاً من الناحية الجسدية. ومن الناحية الروحية كان عطشاناً أيضـــاً لهذا الخلاص الذى يقدمه للعالم، كان عطشاناً لعبارة "قد أكمل" التى سيقولها بعد.. مثلما قال للمرأة السامرية "اعطينى لأشرب" ولم يكن يقصد هذا الماء المادى "الذى كل من يشـــرب منه يعطش أيضاً" (يو٤: ٧، ١٣)، والذى لم يأخذه منها. وإنما كان عطشاناً إليها هى وإلى أهل السامرة، إلى خلاصها وخلاصهم.

ولـــم يقل "أنا عطشان" لكى يأخذ من الناس ماء.. كان يعرف أنهم سيقدمون لـــه خلاً! (مت٢٧: ٤٤، ٤٨). كان يعرف ذلك بلاهوته الذى ينكشف أمامه الغيب والمستقبل. وكان يعرف ذلك من حيث معرفته بالنبوءة التى تقول "وفى عطشى يسقوننى خلاً" (مز٦٩: ٢١).

لم يقل "أنا عطشان" ليطلب منهم ماءً، فالله لا يمكن أن يلتمس معونة من البشر. وأيضاً لأنـــه كـــان عازمـــاً أن يشـــرب كأس الألم حتى التمام. لذلك أعتفى عندما قدموا له خلاً ممزوجاً بالمر، كنوع من التخدير لتخفيف ألمه، و"لم يرد أن يشرب" (مت٢٧: ٣٤).

إنما أراد الرب أن يتمم النبوءات عنه وأن يعلن أن الثمن قد دفع، لكى يطمئن البشر.

أمـــا البشرية الخاطئة فقد استهزأت به فيما هو يدفع ثمن خلاصها. فقدموا له خلاً فى عطشه، لكى يزيدوا ألمه ألماً.. أترانا نحن نفعل ذلك أيضاً، وكلما يطلب الرب أن يرتوى بخلاصنا، ويشرب من نتاج كرمته التى يسرى عصيرها فى عروقنا، أترانا نقدم لـــه خلاً بأفعالنا الرديئة وبلهونا وعبثنا وإهمالنا؟!

يـــا أخـــى أخفـــض تلـــك القصبة التى ترفعها إلى فم المسيح، وابعد عن شفتيه تلك الإســـفنجية المملـــوءة خـــلاً، واندم على جرحك لمشاعر من أحبك واعمل أعمالاً تليق بالتوبة.

وإذا ســـمعت الـــرب يقول "أنا عطشان" فقل له: أنا يارب الذى جففت حلقك بخطاياى ليتـــنى استطيع أن أرويك بدموعى. ليتك تضرب عصاك هذه الصخرة الصلبة –التى هى قلبى– وتفجّر منها ماءً يرويك..

الكلمة السادسة

قَد أُكمِل (يو١٩: ٣٠)

المسيح إلهنا البار، الكامل فى كل شئ، القدوس الذى بلا خطية وحده، الذى عاش على الأرض حياة كاملة استطاع أن يرضى بها الله الآب، هو أيضاً كان كاملاً فى كرازته وفى خدمته. استطاع أن يكمل رسالته التى اعطاه الآب إياها، ويصيح صيحة النصرة الأولى.

العمل الذى أعطيتنى لأعمل، قد أكملته" (يو١٧: ٤).

لقد استطاع أن يكمل كل بر. كمّل بر الناموس كله، وصاح أمام الناس "**من منكم** يبكتنى على خطية" (يو٨: ٤٦). كما كمل أيضاً جميع النبوءات **الخاصة به والخاصة** بعمل الفداء العظيم.. فى سنوات قليلة، حوالى ثلاث سنوات **وبضعة شهور، استطاع** أن يعمل أعمالاً لم يعملها أحد من قبل، واستطاع أن يكرز ببشارة **الملكوت ويقول** للآب "أنا مجدتك على الأرض.. أنا أظهرت اسمك للناس الذين **أعطيتنى من العالم**.. الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم.. الذين أعطيتنى حفظتهم، ولم **يهلك منهم أحد**.. عرفتهم إسمك، وسأعرفهم" (يو١٧).

وهكذا أكمل النبوءات، وأكمل الطاعة، وأكمل كل بر، وأكمل عمله الكرازى، وأكمل الحب، إذ أحب خاصته الذين فى العالم، **أحبهم حتى المنتهى (يو١٣: ١)**.. ثم صعد على الصليب ليكمل عمل البذل، ويكمل **عمل الفداء والكفارة والخلاص**.. ويكمل عمل المصالحة الذى به يصلح السمائيين مع **الأرضيين**..

وفوق هذا المذبح، وضع الله عليه إثم جميعنا.. وضع الله عليه جميع الخطايا، لجميع الناس، فى جميع الأجيال، من آدم **إلى آخر الدهور، بكل ما فيها من بشاعة ومن دنس** ومن خيانة ومن ضعف، **بكل ما فيها من زنا وفجور وكذب وسرقة وقتل وحسد** وكبرياء.. حتى صاح الابن قائلاً **"قد أكمل".. ونحن نضع أيدينا على هذه الذبيحة الطاهرة،** ونعترف كل يوم بخطايا جديدة، **نضيفها إلى آلامه لكى يمحوها** بدمه الكريم..

وكما كملت الخطايا الموضوعة على كتفيه، كمل أيضاً العار الواقع عليه..

وهكـــذا قـــال فى ذلك "بذلت ظهرى للضاربين، وخدى للناتفين، وجهى لم أستره عن خزى البصاق" (أش٥٠: ٦). وقال أيضاً "كل الذين يرونني يستهزئون بى. عار عند البشر ومحـــتقر الشـــعب" (مـــز٢٢: ٧، ٦). فـــى كـــل هذا تعرض للضرب والإهانة والجلد والاســـتهزاء، وكـــل صنوف التحقير والتهكم، وكلمات التجديف والتعيير وكانوا يلطمونه قائليـــن تنـــبأ لنا أيها المسيح من لطمك" (مت٢٦: ٦٧، ٦٨)!! وألبسوه الثوب الأرجوانى وإكلـــيل الشـــوك، وصلبوه بين لصين ليحققوا فيه قول الكتاب "ملعون كل من عُلق على خشـــبة" (غـــل٣: ١٣) (تـــث٢١: ٢٣).. وهكذا "صار لعنة لأجلنا". وفوق الخشبة أيضاً أشبعوه إهانات وسبّاً، حتى ينظر إلى كل هذا العار ويقول: قد أكمل..

وكما كّمل عاره كملت آلامه بالجسد، وكمل الغضب الواقع عليه. دفع الثمن كله، وقدّم نفسه فدية، وظلت النار تشتعل فى ذبيحة المحرقة حتى حولتها إلى رماد (لا٦: ١٠). ولما رأى الـــرب أنه قد أكمل عمل الكفارة والفداء، وأنه أعطى العدل الإلهى كل ما يطلب ولم يعد له شئ بعد، صاح فى نصرة قائلاً "قد أكمل"..

قـــد أكمـــل عمل الخلاص للجميع، وتم الفداء، واستطاع نسل المرأة أن يسحق رأس الحـــية.. استطاع الله وقد "ملك على خشبة" (مز٩٦: ١٠) أن يدمر مملكة الشيطان. الآن أصـــبحت الكفـــارة كاملة كافية للكل. الآن ينشق حجاب الهيكل، ويُفتح الطريق أمام قدس الأقـــداس.. لقـــد كمل الصلح، وكمل الرجاء أمام القديسين الراقدين. ولم يبقَ إلا أن يقوم الرب كجبار، يتقلد سيفه على فخذه، ويستله وينجح ويملك (مز٤٥: ٣). لذلك صاح الرب فى فرح "قد أكمل"..

إن عـــبارة "قد أكمل" هى هتاف الفرح والانتصار. هتف به الرب الذى صارع وملك. واســـتطاع أن يشترينا بثمن، ويؤسس ملكوته الروحى، ويحطم مملكة الشيطان الذى كان يدعى من قبل "رئيس هذا العالم" (يو١٢: ٣٠).

هل تستطيع يا أخى أن تتجح مثل الرب؟ هل تستطيع أن تصعد على الصليب، وتسحق رأس الحـــية؟ هـــل تستطيع أن تنظر إلى عملك الذى أعطاك الرب إياه وتقول **"قد أكمل".**

ليتك تضع أمامك كل حين هذا الشعار الجميل "العمل الذى أعطيتنى لأعمله قد أكملته".

ضع أمامك باستمرار صورة الرب الذى أكمل عَمله.

الكلمة السابعة: يا أبتاه فى يديك أستودع روحى (لو٢٣: ٤٦)

لقد أكمل الرب علمه على الصليب .

كما أكمل عمله الذى كان له قبل الصليب .

وبقـــى له عمـــل آخر ليعمله بعد أن يسلم الروح على الصليب. بقى أن "يسبى سبياً، ويعطى الناس عطايا" (أف٤: ٨). بقى أن ينزل إلى الجحيم ويبشر الراقدين على الرجاء. ويـــنقل هؤلاء القديسين الراقدين من الجحيم إلى الفردوس، فاتحاً أبواب الفردوس المغلقة منذ أيام الخطية الأولى..

لذلك إذا أتم الفداء لم يعد هناك داعٍ للتأخير. عليه إذن أن يخرج من هذا الجسد ليكمل عمـــل الخلاص الخاص بالراقدين أيضاً. فليسلم الروح إذن فى يدى الآب حتى يمكنه أن يعمل الأعمال التى يحل موعد عملها بعد الموت. وهكذا صرخ بصوت عظيم "يا أبتاه فى يديك أستودع روحى"..

فـــى يديك أنت أستودعها، وليس فى يدى غيرك.. "رئيس هذا العالم يأتى، وليس لـــه فـــىّ شئ" (يو١٤: ٣٠)، "أنا من عند الآب خرجت، وأتيت إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأرجع إلى الآب" (يو١٦: ٢٨)..

كمـــا اشـــتاق رئـــيس هذا العالم أن يحصل على هذه النفس، أن يقبض عليها كسائر الأرواح الـــتى فى السجن. ولكنه لن يقدر على هذه النفس بالذات التى سيستقبلها الآب فى يديـــه. نفسى هذه لا يستطيع أحد أن يأخذها منى. لى سلطان أن أضعها، ولى سلطان أن آخذها أيضاً (يو١٠: ١٧، ١٨).

إن روح لعازر المسكين –عندما خرجت من جسده – حملتها الملائكة (لو١٦: ٢٢). وروح العذراء حملها المسيح. أما روح المسيح فيحملها الله الآب.

يقـــول معلمـــنا متى الرسول إن المسيح "صرخ بصوت عظيم" (مت٢٧: ٥٠) وأسلم الروح. فماذا نفهم من عبارة "صرخ بصوت عظيم"؟

لاشـــك أنـــه من الناحية الجسدية كان فى منتهى الانهماك والإرهاق. بعد كل تعبه فى حمـــل الصـــليب حتى وقع تحته، وبعد تعب الجلد واللطم والصلب، وبعد أن سال ما فى جســـده مـــن دم ومـــاء، وبعد أن جف حلقه حتى قال "أنا عطشان". كيف يصرخ بصوت عظيم وقد لصق لسانه بحنكه؟

إن صـــراخه فى ساعة الموت "بصوت عظيم" دليل على أن لـــه قوة أخرى فوق قوة الناسوت، أى دليل على لاهوته.

صـــراخه بصـــوت عظيم دليل على انتصاره، لأنه بالموت داس الموت وقهره. هذه الصرخة زعزعت الشيطان وقهرته.

حقـــاً كـــان موت المسيح، نصرة، نصرة الفادى الذى استطاع أن يخلص العالم كله، ويسحق رأس الحية..

وفـــى عبارة "فى يديك أستودع روحى" طمأنينة عظيمة لنا من جهة خلود الروح. إنها لا تنتهى بالموت.. الموت بالنسبة لـــه مجرد عبور أو انتقال من حياة إلى حياة. إنما المهم فى الموضوع كله هو: أين تستقر الروح بعد موتها. إن اطمأن الإنسان على هذه النقطة، استقبل الموت بفرح، وقال: لى اشتهاء أن أنطلق..

وأنـــت أيها الأخ: هل أنت مطمئن على مصير روحك؟ هل عندما تلفظها – بعد عمر طويـــل – ســـتودعها فى يدى المسيح، أو ستحملها الملائكة مثل روح لعازر؟ أم سيقبض عليها الشيطان ويقول "إنها لى. كانت من جندى، تعيش فى طاعتى.. لذلك سآخذها لتكون معى" يا للهول!! أطمئن يا أخى إذن أين ستذهب روحك.

وضع أمامك باستمرار تلك الأغنية الجميلة **"لتمت نفسى موت الأبرار، ولتكن آخرتى كآخرتهم" (عد٢٣: ١٠٩).**

إســـتودعها فى يديه من الآن، بالبعد عن كل دنس، وبالالتصاق كل حين بالرب. كن كملائكـــة الكنائس السبع الذين كان الرب ممسكاً بهم فى يده اليمنى. ضع نفسك أنت أيضاً فى يدى المسيح. وتأكد أنه سيسمعك صوته الجميل وهو يغنى "أنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، **ولا يخطفها أحد من يدى" (يو١٠: ٢٨، ٢٩).**

وكلمـــا تحاربك الخطية بفكر أو شهوة، أسأل نفسك فى صراحة: هل روحى الآن فى يدى الآب..

فاعلية هذه الكلمات في حياتنا

هـــذه الكلمات الغالية التى قالها السيد المسيح على الصليب: فلنضعها نحن فى قلوبنا، ولتكن ذات فاعلية فى حياتنا.. لنقرأ كل كلمة منها فى إمعانٍ، ونتفاعل معها.. وسنضرب الآن مثالاً لتفاعل القلب مع كلمتين منها:

يا أبتاه إغفر لهم ..

لقد علمنا الرب أن نقول فى الصلاة الربية "إغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن أيضاً لمن أخطأ إلينا". فأصبحت عبارة "يا أبتاه أغفر لهم" شرطاً لازماً للمغفرة، لك أنت.

فلا يظن أحد منكم إنه يمنح المغفرة لغيره عندما يقول "يا أبتاه أغفر لهم". فى الواقع إنه يأخذ المغفرة لنفسه. لأن شرط الغفران الذى تأخذه أنت، هو أن تغفر لغيرك "اغفروا يُغفر لكم" (لو٦: ٣٧).

إن الســـيد المسيح عندما علمنا الصلاة الربية، لم يعلق على أية طلبة منها سوى هذه الطلبة الواحدة. وهكذا قال "فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم" (مت٦: ١٤، ١٥).

لذلك فإن لم تغفر أنت للآخرين، إنما تمنع المغفرة عن نفسك، وليس عن الآخرين.

فإن قلت "يا أبتاه أغفر لهم"، يرد عليك قائلاً "وأنا أيضاً أغفر لك" إذن فمغفرتك للناس أمر أنت مضطر إليه، لكى تنال المغفرة أيضاً.. **فالأفضل إذن أن تغفر من أجل المحبة – كما فعل المسيح – بدلاً من أن تغفر اضطراراً من أجل أن يغفر الله لك...**

من الجائز أن هذه المغفرة تتعبك من الداخل، ولا تكون سهلة على قلبك.. كيف اغفر

لمن فعل بى كذا وكذا، وأهاننى وأتعبنى وألصق نفسى بالتراب؟! أقول لك: أحتمل.. أنت فـــى الواقع فيما تعطى لهذا الإنسان المغفرة، إنما تعطيها أيضاً لنفسك، فاغفر، لكى يغفر الرب لك. وأقول مرة أخرى: ليتك تغفر عن حب، وليس عن اضطرار..

الســـيد المسيح على الصليب تقدم ليأخذ مغفرة من الآب عن كل خطايا البشر، فغفر لصالبيه أولاً.

وكأنه يقول للآب "سأغفر لهم كل ما فعلوه بى، لكى تغفر أنت لى".. ليس لكى يغفر له خطاياه، فالمسيح بلا خطية (يو٨: ٤٦). ولكن يغفر له الخطايا التى يحملها، لأنه "حمل الله الذى يحمل خطايا العالم كله" (يو١: ٢٩)، إذ "قد وُضع عليه إثم جميعنا" (أش٥٣: ٦).

قد تقول: كيف أغفر كل ما فعلوه بى.. يكفى أننى صامت لا أرد الشر بالشر..

لا يـــا أخـــى .. إن هـــذا الصمت لا يكفى. يجب أن تنتصر على نفسك من الداخل، وتغفر.

وعندما تنتصر على نفسك من الداخل، وتغفر، تكون قد صعدت على الصليب.

وعندما تصعد على الصليب. تستطيع أن تقول "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه" (فى ٣: ١٠). لقد دخلت فى شركة آلامه، صعدت معه على الصليب، وغفرت للمسيئين لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون.

اليوم تكون معى فى الفردوس :

قـــل لنفسك : لكى اسمع هذا الوعد من المسيح، ينبغى أن أقول كما قال اللص "نحن بعدل جوزينا"..

إن اللـــص اليمين لم يعتفِ من الآلام التى وقعت عليه، إنما طلب المغفرة فى الأبدية، فكـــن مثله، ولا تكن مثل اللص الذى طلب أن ينزل المسيح من على الصليب وينزله معه "يخلص نفسه وإيانا"..

مسكين هذا الجاهل، إن فى نزول المسيح عن الصليب هلاكاً للعالم أجمع. لو كان هذا اللـــص يســـعى لخلاص نفسه، لقال: إنتظر يارب قليلاً على الصليب، من أجلى، لكى لا أهلك.. أرجوك يارب، إحتمل من أجلى، إحتمل حتى الموت لتدفع ثمن خطاياى...

كـــن يـــا أخى روحانياً كاللص اليمين الذى فكر فى أبديته، ولا تكن جسدانياً كاللص الشمال الذى فكّر فى خلاص جسده فقط..

ولا تهـــرب مـــن الضيقات التى تقع عليك، بل فى كل ضيقة قل عبارة اللص التائب "نحن بعدل جوزينا"..

وكمـــا تطلب من الرب أن يذكرك فى ملكوته، أذكره أنت أيضاً على الأرض، والصق قلبك بمحبته..

ولا تطلـــب أن يذكـــرك الرب فقط على الأرض بل فى ملكوته. إن كان فى الأرض مسامير أو صليب، لا يهم.. المهم هو مصيرك فى الملكوت..

لا يهـــم أن نقضى حياتنا الأرضية هنا على الصليب.. إنما المهم أن نكون مع الرب فى فردوسه..

لا تفكر أن تنزل من على صليبك، بل إحتمل واصبر.

لقد قال الرب للص "اليوم تكون معى فى الفردوس"، لأنه قبل إيمانه واعترافه وتوبته.

وأنـــت، هـــل قدمـــت للـــرب اعترافاً وتوبة وإيماناً حتى تستحق أن تكون معه فى الفردوس؟

إن لم تكن قد فعلت، فابدأ من الآن ..

أشترك فى الآلام معه، لكى تتمجد أيضاً معه..

وتذكـــر أن عـــبارة "الـــيوم تكون معى فى الفردوس" هى عبارة مشجعة جداً، تمنع اليأس، وتهب الرجاء.

إن كان اللص قد نال الوعد بالفردوس، على الرغم من كل شروره وخطاياه، فلا تيأس أنت مهما كانت خطاياك.

إن كانـــت توبة اللص قد قُبلت، وهو فى أخر ساعات حياته، فلا تيأس أنت إن كانت حياتك السابقة كلها قد أكلها الجراد وضاعت هباءً.

عـــبارة "الـــيوم تكـــون معى فى الفردوس" تعطينا أيضاً مثالاً عملياً لسرعة إستجابة الصلوات.

حالمـــا قال اللص "أذكرنى يارب"، أتاه الرد سريعاً "اليوم تكون معى فى الفردوس".. إذن لا تمـــل من الصلاة والطلبة، ولا تبرح من فمك عبارة "أذكرنى يارب.." قلها فى كل حين، ومن أعماق قلبك، وبالإيمان؟ وثق أنه سيستجيب.

لا تـــترك العـــدو يحـــاربك بـــالخجل، حتى لا تطلب. إن العشار فى عمق خجله قال

"إرحمنى يارب". واللص وهو عارف بخطيئته، قال "اذكرنى يارب".

هكـــذا نحن أيضاً، مع أن الخزى يغطى وجوهنا بسبب خطايانا، ومع أنه ليس لنا وجه نرفعه إلى الرب، وليست لنا دالة ولا حجة ولا معذرة، إلا أننا من أجل حنانه هو ومحبته هو وغفرانه. سنظل نقول عبارة "اذكرنى يارب"، إلى أن ننال منه الوعد بالفردوس..

إن الـــرب لم يكتفِ فقط بأن يعطى اللص وعداً بالفردوس، وإنما بالأكثر أعطاه وعداً أن يكون معه. لأن أهم ما فى الفردوس أن نكون مع الرب..

نعـــم إن الفردوس بدون الرب لا قيمة له، ولا نعيم فيه، ولا يصح أن يدعى فردوساً.. إن النعـــيم الحقيقى هو أن نكون مع الرب.. يكون الرب وسط شعبه.. يتمتعون به، بحبه، وبنوره.. وبأبوته، وحنانه..

لذلك لا تطلب الفردوس، بل أطلب الرب نفسه..

اطلـــب أن تكـــون معـــه، تتأمل وجهه المفرح بالبشوش، كما قال داود "لوجهك يارب ألتمس. لا تحجب وجهك عنى"..

والعجيب في قصة هذا اللص أنه أخذ وعداً بالوجود مع الله في الفردوس، على الرغم من أنه لم يعش مع الله على الأرض...

بل مجرد ساعات قليلة قضاها مع الرب حسناً، إستطاعت أن تمنحه صحبة الرب إلى الأبد. لأنها كانت ساعات ذاق عمق، عمق شديد، وصل بها إلى عمق قلب الله.

لـــيس المهـــم إذن فـــى طول الوقت الذى تقضيه مع الرب، بل المهم فى عمقه. كلمة واحدة بعمق تقتدر كثيراً فى فعلها.. قل هذه الكلمة..

وعش فى عمق الصلة، لتصل إلى أعماق الله...

في هذا الكتاب

باسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

إنها سبع كلمات ، لفظ بها الرب على الصليب ، فى آلامه ... وكانت كلها حياة لنا ...

لم يتكلم أثناء المحاكمات ، ولا أثناء التعذيب والإستهزاء إلا نادراً . كان يغلب عليه الصمت ...

أما على الصليب ، فتكلم ، حين وجب الكلام . تكلم من أجلنا لنفعنا وخلاصنا . وكان لكل كلمة هدف ومعنى ...

البابا شنوده الثالث

الثمن ١٥٠ قرشا